الإسلام والأخلاق

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»

رواه أحمد (٢/ ٣٨١) ومالك في الموطأ (٢/ ٩٠٤) والحاكم (٢/ ٦١٣)

obeikandi.com

obeikandl.com

الإسلام والأخلاق

يحلو لبعض الناس من مدّعي العلم والمعرفة أن يترنموا ويطنطنوا بعبارات ، لن نقول إلا أنها منحرفة عن جادة الصواب ، ولا تنمُّ عن تفكير سليم .

فمن قائل يقول : إن الإسلام نظام قاس لا يعرف الرحمة ، إلى آخر يقول : إن الإسلام دين أقر العبودية وداس على العبيد وتجاوزهم .. دون أن يلتفت لحقيقتهم الإنسانية ، هذا بزعمهم ، ويضربون الأمثلة الطوال ، ويستشهدون بمفكرين ومؤرخين .. وما إلى ذلك من الأساليب الملتوية التي يلجؤون إليها لتشويه صورة الدين الذي أُرسل به النبي محمد ﷺ ، والذي كانت مهمته واضحة في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

هذه الرحمة التي تمثلت في خلق حضارة إسلامية وسط الكثبان الرملية ، تحت الشمس المحرقة ، في الصحراء ، بعد أن كان العرب قبائل متفرقة ، متشتتة ، متناحرة ، تعيش على الغزو والنهب والسلب .. فاستطاع بوساطة هذا الدين الجديد ، معتمداً دستوره الخالد ـ القرآن الكريم ـ استطاع أن يجمع هذه القبائل تحت لواء الإسلام .. استطاع أن ينشئ منهم دولة قوية فتحت العالم في مدة قصيرة نسبياً ، ووصلت حدود دولة الإسلام إلى أطراف الدنيا ..

وسادت الرحمة والمحبة . . وأصبح الإنسان كريماً . . له حقوق . . وعليه واجبات . . فيؤدي ما عليه . . ويأخذ ما له . . دون هضم لحقوقه . . ودون إهمال لواجباته .

واستطاع هذا الدين أن يغيّر من نفوس أولئك العرب الأجلاف . . وأصبحوا يتمتعون بنفوس لينة متراحمة فيما بينها . . شديدة ضروس على أعدائها . . أعداء الله ورسوله ، فلم يبقَ مكان لضغائن أو أحقاد أو ثارات . . وحقنت الدماء . . وتهذبت الأخلاق .

وتهذيب الأخلاق كان المهمة المرافقة للرحمة . . كما ورد في موطأ الإمام مالك : « **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** »(١) .

وهاتان المهمتان ـ الرحمة ونشر الأخلاق ـ كانتا واضحتين بالنسبة للمسلمين . . فكل تعاليم الإسلام كانت مجبولة بالرحمة . . منبثقة عنها . . ولم ينكر الإسلام أخلاق العرب بأي حال من الأحوال . . فأجدادنا القدماء كانت أخلاقهم مضرباً للأمثال . . في المروءة والكرم والشهامة وإغاثة الملهوف .

لذلك كانت مهمة الرسول ﷺ هي إتمام هذه الأخلاق . . أي تحسينها ، والموافقة على ما يوافق ويساير روح الإسلام ، والتخلي عما ينافي تعاليم الإسلام . . فلم ينكر الإسلام الكرم والشجاعة والمروءة و ، و . . بل حث على التحلّي بهذه الأخلاق . . ورغب

---

(١) سبق تخريجه .

obeikandi.com

بها .. بينما نبذ فكرة الأخذ بالثأر ، والتعامل بالربا ، ووأد البنات .. وما إلى ذلك من هذه التصرفات التي كانت تجعل المجتمع مفككاً ، والروابط الاجتماعية مخلخلة .. فنبذ هذه الأفكار ودعا للتخلي عنها .. وبهذا كوَّن المجتمع الموحّد .. كل هذا واضح بالنسبة لنا ..

ولكن لا يخلو المجتمع من أناس بحاجة إلى صورة أكثر وضوحاً ، وسنحاول في هذه الصفحات القادمة عرض مهمة الرسول ﷺ ، التي نجح فيها ، وأدت لظهور مجتمع إسلامي قويم .. وقد شهد علماء الدنيا لهذا النبي بالعظمة ، وسداد الرأي ، والحكمة .

وحياة هذا الرسول الكريم .. وتصرفاته .. وأخلاقه .. هي التي دعت بسمارك ذات يوم ، هذا الرجل الحديدي إلى الوقوف بإجلال واحترام أمام ذكراه ﷺ فقال بسمارك : « إني تدبرت الكتب المنزلة السماوية التي يُدَّعى أنها واردة من اللاهوت ، فما وجدت لما فيها من التحريف ما أنا طالبه من الحكمة ، وإن تلك القوانين ليست بحيث تؤمن السعادة البشرية ، لكن القرآن المحمدي[1] ليس بداخل في ذلك القيد ، نعم دققت القرآن من كل جهة ، ومن كل نقطة ، فوجدت في كل كلمة منه حكمة عظيمة ، ومن ادعى أن هذا القرآن قد

---

(١) طبعاً هذا اللفظ ـ القرآن المحمدي ـ هنا لبسمارك فنحن كما نعلم أن القرآن هو من عند الله .. وهذا ما سيوضحه بسمارك نفسه لاحقاً .

ترشَّح من قريحة محمد ، فقد أغمض العين عن الحقائق ؛ لأن ذلك الزعم مجرد يمجُّه العلم والحكمة ، وإني أدّعي أن حضرة محمد قدوة ممتازة ، وليس في الإمكان إيجاد القدوة محمداً ثانياً .

فيا محمد إني متأثر جداً من أن لم أكن معاصراً لك ، إن الكتاب الذي نشرته ليس من قريحتك ، وإنكار ألوهيته هراء ، إن البشرية رأت قدوة ممتازة مثلك مرة واحدة ، ولن ترى ذلك مرة أخرى ، فبناء على هذا أنا أُعَظِّمك بكمال الاحترام، راكعاً في حضورك المعنوي . . » اهـ.

تُرى هل بسمارك هنا متحيز لجانب النبي ، وما الذي يدعو رجلاً مثل بسمارك ليقول كلاماً كهذا ؟ . . إنه لا شك التفكر الصحيح في تاريخ الإسلام . . وفيما قدمه الرسول ﷺ للإسلام وللمسلمين .

وهذا بدوره ما دعا الفيلسوف الانكليزي ـ برناردشو ـ لأن يسمي هذا الرسول الكريم منقذ الإنسانية عندما قال : « إن محمداً يجب أن يدعى منقذ الإنسانية . إنني أعتقد لو تولّى رجل مثله زعامة العالم الحديث لنجح في حل مشاكله بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة ، إن محمداً هو أكمل البشر في الغابرين والحاضرين، ولا يُتصوّر وجود مثله في الآتين » . اهـ .

ولنستمع إلى وصفٍ لحال العرب قبل بداية الدعوة الإسلامية ، ولقدرات النبي ﷺ ، وقوّة تفكيره ، ومنجزاته في مجال الحضارة وتربية النفس ، كما ورد في وصف العالم الفرنسي لامارتين حين

قال : « إن حياة مثل حياة محمد ، وقوة كقوة تأمله ، وتفكيره وجهاده ، ووثبته على خرافات أمته ، وجاهلية شعبه ، وبأسه في لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان ، وإيمانه بالظفر ، وإعلاء كلمته ورباطة جأشه ، لتثبيت أركان العقيدة الإسلامية . . إن كل ذلك أدلة على أنه لم يكن ليضمر لأحد أذىً ، أو يعيش على باطل، فهو فيلسوف وخطيب ورسول ومشرع ، وهاد للإنسان إلى العقل ، وناشر للعقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب وهو مؤسس دين لا فردية فيه ، وفاتح دولة في السماء من ناحية الروح والفؤاد ، فأي رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثلما أدرك ، وأي آفاق بلغ أي إنسان من مراتب الكمال ما بلغ محمد . . » . اهـ .

ربما أطلنا قليلاً في تقديم هذه المقالات لبعض الرجالات الذين لا صالح لهم في قول ما قالوا إلا قول الحق في حق عظمةٍ كانت ذات يوم ، وما زال تأثيرها ممتداً حتى يومنا هذا .

ولو أردنا أن نذكر من هذه الأقوال ، أو نتحدث عن مناقب وآثار الرسول ﷺ لاحتجنا لمجلدات كثيرة دون أن نفيه حقه ، لأنه كان فعلاً رحمة مهداة من رب العالمين .

ونحن كمسلمين تغنينا عن كل هذه الشهادات ، شهادة الله عز وجل لرسوله بأن أرسله رحمة للعالمين .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾

[الأنبياء : ١٠٧] .

فهل يُتوقع بعد هذا أن يكون ديننا ديناً قاسياً لا يعرف الرحمة ؟ وهو إنما أتى للحفاظ على أرواح الناس أن تزهق بغير حق .

وأتى لإعطاء كل ذي حق حقه، دون النظر لحسبٍ أو نسب. . فالناس سواسية في مقياس الإسلام . . ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى .

قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾

[الحجرات : ١٣] .

وأتى ليخلق قوة حضارية يبقى تأثيرها خالداً على مر العصور ؛ حتى يرث الله الأرض ومن عليها . . بشرط أن نعي مقومات هذه الحضارة .

وبعد هذا كله ، يأتي بعض الناس مشككين متسائلين ، فنظرة حق لا نريد أكثر من ذلك ، افتحوا عيونكم وقلوبكم ، وتفكّروا ، وسوف تصلون معنا لنور الحق المبين . . فهلاَّ تفكرنا . . ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣] .

١ ـ مشكلة النفس البشرية

عندما خُلق الإنسان ، وحمل بين جنباته قلباً ينبض بالحياة ، فقد حمّله الإسلام مسؤولية الحفاظ على هذا القلب النابض في نفسه أولاً ، وفي غيره ثانية .

ولقد ضمن الإسلام للناس حقوقاً عديدة مثل : حق الحياة ، وحق التملك ، وحق الحرية ، وحق المساواة . . وهذه الحقوق واجبة لكل إنسان دون تمييز ، وبصرف النظر عن لونه وجنسه ووطنه أو مركزه الاجتماعي ، لأن الإنسان مكرَّم كيفما ذهب وأنَّى حل . . ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

والإسلام كان له الدور الأكبر في تجسيد كرامة الإنسان في الحياة العملية . . وقصة جبلة بن الأيهم التي جرت في عهد عمر بن الخطاب مشهورة . . فقد أتى جبلة هذا في كوكبة من الفرسان إلى عمر بن الخطاب ليعلن إسلامه ، فاستبشر عمر خيراً ، ودعاه للحج ، وكان موسم حج ، فذهب جبلة ليحج وبينما هو في طوافه يجر إزاره ، إذ داس أعرابي على إزاره فحلّه ، فالتفت إليه جبلة ولطمه ، فذهب هذا الأعرابي يشتكيه لأمير المؤمنين عمر ، وعندما واجهه عمر بن الخطاب مع الأعرابي لم ينكر فعلته ، فقال له عمر : إما أن ترضيه ، أو يلطمك كما لطمته . . فذهل جبلة ، أعُمر يساوي بيني وبين ذاك الأَعرابي ، وهو الأمير المكرَّم ؟ وقال : ظننت أن إسلامي سيزيد من عزِّي ومكانتي ، قال عمر : وهو كذلك ، فقال جبلة : انظرني إلى الغد . . وفي الليل رحل جبلة مع فرسانه إلى دولة الروم ، وتنصر هناك ، ثم أعلن ندمه على ترك الإسلام ، ولن ندخل في تفصيل ذلك .

ولكن ما يهمنا هو حرص الإسلام ، ممثلاً بأمير المؤمنين عمر ، على أخذ حقوق الناس وحفظ كرامتهم ، ولو أدى ذلك إلى انزعاج بعض الشخصيات ، مثل جبلة ، التي تظن نفسها فوق الناس ، ومن عليّة القوم . . فالحق حق ، وما كان الفاروق عمر ليفرط في حق ذاك الأعرابي وهو عنه مسؤول في أن يحفظ له كرامته ؛ التي هي حق من حقوق كل مواطن يعيش في ظل دولة الإسلام .

وأوصى الرسول ﷺ في خطبة الوداع بحقوق الناس فقال: **« يا أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت، اللهم فاشهد، كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه »**[1] .

وكان حرص الإسلام على أرواح العباد منطلقاً من ثلاث نقاط :

آ ـ حرصه على حياة الفرد نفسه ، وتكليفه بصون نفسه عن المهلكات ، وكل ما يمكن أن يودي بحياته ، أو حتى أن يعرضه للخطر . . ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

ومن المنطلق نفسه حرّم الانتحار بكافة أشكاله . . ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٢٩] .

وفي الحديث الشريف : **« من قتل نفسه بشيء عُذّب به يوم القيامة »**[2] .

---

(١) رواه البخاري (٦٧) ومسلم (١٦٧٩) .

(٢) رواه البخاري (٦١٠٥) ومسلم (١١٠/ ١٧٦ و١٧٧) .

ب ـ وأوصى الإسلام الأب بعدم إجهازه على أولاده إذا خشي الفقر ، كما كان سائداً ، فقد كان الأب يقتل الأولاد إذا كان فقيراً كي يرتاح من مسؤولياتهم . . ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٣١] [١] .

فضمن الله له ولأولاده الرزق ، الذي يكفيه ليحيا حياة طيبة مع أولاده دون أن يلجأ لقتلهم .

وهنا لا بد أن نشير إلى عادة قبيحة كانت سائدة في الجاهلية ، ثم أتى الإسلام ونبذها ، ونهى المسلمين عن اقترافها .

فانتبهوا لذلك يا من تهاجمون الإسلام وترمونه بالقسوة ، تلك هي عادة وأد البنات ، فلقد كان الرجل ليسعد بحمل زوجه ، وينتظر بصبر عظيم أن تنجب له ولداً يرثه ، ويحمل لقبه من بعده ، ويبقى الأب مستبشراً بذلك حتى تحين ساعة الولادة . . والطامة الكبرى تكون لو ولدث بنتاً ، فيقيم الدنيا ويقعدها ، ولا يجرؤ أحد على إخباره بالأمر خوفاً من بطشه . . وهذا ما صوره لنا القرآن الكريم : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل : ٥٨] [٢] .

وتجده لا يجرؤ على الخروج إلى قومه ، فبأي صورة يواجه قومه ، وهنا يبحث عن الحل ، فهو إما أن يعيش والعار يلاحقه ، أو

---

(١) « خشية إملاق » : خوف فقر وفاقة . « خطئاً كبيراً » : إثماً عظيماً .

(٢) « وهو كظيم » : ممتلئ غماً وغيظاً في قرارة نفسه .

يسترد شرفه فيدفن ابنته ، من لحمه ودمه ، في التراب وهي حية . . ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل : ٥٩] (١) .

ولكن ، ترى كيف شعور هذا الأب وهو يدفن جزءاً منه في التراب ، أتراه كان يحس أن ابنته هذه فعلاً جزء منه ، أم أنها عار يجب التخلص منه . . وهل كان يرتاح عند دفنها . . أم ماذا ؟ . .

لا شك أن هذا التصرف منافٍ للفطرة الإنسانية ، وللتكوين النفسي للإنسان، لذلك أتى الإسلام ليحل المشكلة، ويصحح المفاهيم، ويمنع وأد البنات. ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير: ٨ ـ ٩] (٢) .

وهكذا حرَّم الإسلام قتل الأولاد خشية الفقر ، كما منع وأد البنات ، واعتنى بهنَّ ورفعهن ، وسيرد هذا معنا لاحقاً .

جـ ـ شدَّد الإسلام على ضرورة الحفاظ على أرواح الناس ، وعدم مسِّها بأذى ، أو تعريضها لخطر ما . . ونفّر بشدة من جرائم القتل ، وخصوصاً أمر الثارات التي كانت متفشية بشكل مريع فيما مضى . . فحرَّم قتل الإنسان مهما كانت صفته ، ولم يبح إهراق دمه

(١) « يتوارى » : يستخفي ويتغيب . « هون » : هوان وذل . « يدسه » : يخفيه بالوأد فيقتله حياً .

(٢) « الموءودة » : البنت التي تُدفَن حية .

إلا بشروط محددة ، تحدث عنها الحديث الشريف : « **لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة** » رواه البخاري ومسلم[١] .

فأباح الإسلام قتل الإنسان قصاصاً في ثلاث حالات :

ـ المتزوج الذي يزني ، فيرجم حتى الموت ضمن شروط محدَّدة .

ـ وقاتل النفس يُقْتَل بفعلته ، ولها شروط حدَّدها الشرع الحنيف .

ـ والمرتد عن دينه ، أي دين الإسلام .

ولكي يزيد الإسلام من رهبة قتل النفس البشرية ، عدَّ قتل الفرد الواحد بمثابة قتل لمجتمع كامل ، وهذه أعظم صورة في تشنيع جريمة القتل . ﴿ **مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ [المائدة : ٣٢] .

ولا يوجد نظام في العالم جعل هذه المعادلة « قتل الفرد = قتل الجماعة » محققةً إلا في الإسلام . . فالإسلام دين وقاية ، فلا يريد أن تشيع الفاحشة في المجتمع ، ولا يريد أن تضيع القيم والمبادئ ،

---

(١) رواه البخاري (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦) .

وتتفشى الجرائم وأعمال القتل والتخريب ، لذا يلجأ لهذه الصورة من تشبيه قتل الفرد بقتل مجتمع بكامله . .

ومن أجل تحريم الاعتداء على المسالمين الوادعين الخيِّرين الطيِّبين ؛ الذين لا يريدون شراً ولا عدواناً ، ومن أجل أن الموعظة والتحذير لا يجديان في بعض الجبلاّت المطبوعة على الشر ، وأن المسالمة والموادعة لا تكفان الاعتداء حين يكون الشر عميق الجذور في النفس ، من أجل ذلك جُعِلت جريمة قتل النفس الواحدة كبيرةً ، تعدل جريمة قتل الناس جميعاً ، كما جُعِل العملُ على دَفْع القتل ، واستحياء نفسٍ واحدة عملاً عظيماً يعدل إنقاذ الناس جميعاً .

ولكن رغم كل الاحتياطات التي يصوغها الإسلام ، فلا بد من وجود الشواذ في كل مجتمع ، ولذلك فقد شرع الإسلام القصاص وإعدام القاتل انتقاماً منه ، وزجراً لغيره ، وتطهيراً للمجتمع من الجرائم التي يضطرب فيها النظام العام ، ويختل معها الأمن . ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰأُولِي الْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩] .

ولكن هذا القصاص لا يكون عشوائياً ، كما كان في المجتمعات الرومانية القديمة ؛ التي كانت قوانينهم تنص على شريعة تطبيق العقوبة لمجرد الظن . . فيقول أندريه كرسون : « فها هم أولاء أسلافنا ، كانوا يرون شريعة تطبيق العقوبة على مجرد ظن الجريمة ، وكانوا بلا أدنى قلق يشاهدون الفرد مشنوقاً من أجل

اختلاس تافه »[١] . .

فهذا الأمر ، وهذه العقوبات العشوائية غير موجودة في الشريعة الإسلامية . . بل هناك قاعدة مهمة ورائعة تقول : « **ادرؤوا الحدود بالشبهات** »[٢] .

فمجرد وجود الشبهة يمنعنا من تطبيق العقوبة ، أي لا يجوز أن نقول لأحد أنت مجرم أو أنت مذنب ، ولا نستطيع أن نتخذ بحقه العقوبة إلا إذا تأكدنا تماماً ، وتوافرت لدينا الأدلة المقنعة والدالّة على أنه مرتكب الجريمة فعلاً .

وقد يظن بعضهم أن هذه العقوبات ما وجدت إلا في الشريعة الإسلامية ، ولكن الواقع أن هذه العقوبة مقررة في جميع الشرائع الإلهية المتقدمة . . ففي الشريعة الموسوية ، جاء في الفصل الحادي والعشرين من سفر الخروج : « إن من ضرب إنساناً فمات فليقتل قتلاً ، وإذا بغى رجل على آخر فقتله اغتيالاً فمن قدام مذبحي تأخذه ليقتل ، ومن ضرب أباه وأمه يقتل قتلاً . وإن حصلت أذية فأعط نفساً بنفس ، وعيناً بعين ، وسناً بسن ، ويداً بيد ، ورجلاً برجل ، وجرحاً بجرح ، ورضّاً برضّ » . .

وفي الديانة المسيحية ، يعتقد بعضهم أن قتل القاتل كان

---

(١) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ـ أندريه كرسون .

(٢) رواه الخطيب البغدادي في تاريخه (٩/٣٠٣) وانظره في تلخيص الحبير (٤/٥٦) وكشف الخفاء (١/٧٣) .

موجوداً ، ويستدلون على ذلك بما قاله عيسى عليه السلام : « ما جئت لأنقض ناموساً ، وإنما جئت لأتمم » .

وقد تأيد هذا النظر بما ورد في القرآن الكريم : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ . . ﴾ [آل عمران : ٥٠] وهذا كله ينطبق على قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ [المائدة : ٤٥] .

والإسلام من مزاياه أنه لا يعرف التفرقة ، فهو لم يفرق بين نفس ونفس ، فالقصاص حق ، سواء أكان المقتول صغيراً أم كبيراً ، رجلاً أم امرأة ، فلكل حق الحياة . . ولا يحل التعرض لحياته بما يفسدها بأي وجه من الوجوه ، حتى في قتل الخطأ ، لم يُفْلِت القاتل من جريمته ، وأوجب عليه الشرعُ العتق والدية . ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ﴾ [النساء : ٩٢] .

وربما يتساءل بعضُهم ، ما قيمة المال هنا ؟ .

إن هذه العقوبة المالية إنما أوجبها الإسلام في القتل الخطأ ، احتراماً للنفس أولاً ، وحتى لا يتسرب إلى ذهن أحد هوانها ثانياً . . ولكي يحتاط الناس فيما يتصل بالنفوس والدماء ، ولسد ذرائع الفساد ، حتى لا يقتل أحدٌ أحداً ويزعم أن القتل كان خطأً . . فالإسلام يتبع دوماً قاعدة : الوقاية خير من العلاج . فيحتاط لكل

الأمور ، ولكن عند وقوع المحظور ، فالحل موجود وحاضر . . والعقوبة التي تقرها كل أنظمة العالم لها حكمة بالغة . . فالمجتمع الذي تحدث فيه الجرائم دون أن تطال العدالة هؤلاء المجرمين ، سيكون مجتمعاً مخلخلاً ، يخشى أهله بعضهم بعضاً ، وتنعدم الثقة ، ويتفشى الرعب في صفوف أفراد الشعب . . ومن هنا كان لا بد من وجود نظام رادع ، نظام العقاب مع النظر بعين العدل للحادثة من جوانبها كافة ، بحيث لا تُنَفَّذ العقوبة إلا بالحق .

ونشير أخيراً إلى حالة اعتنى بها الإسلام كثيراً وهي : إسقاط الجنين . . هذا الذي نراه اليوم متفشياً كثيراً في تلك البلاد التي تدعي التقدم والمدنية ، وقد أصبحت عندهم الإباحية الجنسية إحدى دعائم حضارتهم . . فالبنت عندهم تحمل ولا بد من أن تجهض وإلا ما الحل ؟ وكيف تفعل بهذا الجنين ؟ .

ولكن في مجتمعات الإسلام والمسلمين ، حرَّم الإسلام إسقاط الجنين بعد أن تدب الحياة فيه ، واعتبره إزهاقاً لروحٍ بشرية ، فلم يجوِّز إنزال الجنين إلاّ في حال وجود سبب حقيقي يوجب إسقاطه ، كالخوف على أمه من الموت وما إلى ذلك . . وهذا يقرره طبيب خبير ، وليس أي إنسان .

ولعل الحكمة في تحريم الإسقاط دون سبب ، إنما هو التحذير من الوصول إلى ما وصلت إليه المجتمعات الأخرى من الإباحية . . ولتنظيم العلاقة بين الزوجين ، ومنع تلك التأثيرات النفسية الجانبية الناجمة عن هذا الإسقاط على المرأة خاصة .

وبهذا العرض الموجز وبعد ما ذكر ، لكل الحق في أن يتبيَّن من خلال عقله وتفكيره منهج هذا النظام السماوي التشريعي ، الذي وضَّحه عز وجل ، وأمر الناس بالاحتكام إليه .

ولعل رأفة الإسلام بالمسلمين ، وحرصه عليهم ، وعلى نيل حقوقهم كاملة قد بات واضحاً في نظر المنصفين .

٢ ـ مشكلة الخمر

لعلنا لا نختلف في أن الخمر وشربه لا يزال من المشكلات التي استعصت على الحل ، فكم من حوادث وجرائم كانت ناجمة عن الإفراط في الشرب ! وكم من دول متقدمة صناعياً ناشدت أهلها أن يخفضوا من كمية المشروبات الروحية فلم يفلحوا ! .

وعندما حاولت بعض الدول ـ كفرنسا مثلاً ـ منع شرب الخمور قسراً ، ارتفع عدد المدمنين ، وتضاعفت كمية الخمر المستهلكة إلى الضعف ؛ لأن كل ممنوع مرغوب ، فاضطرت هذه الدول إلى إعادته للأسواق ثانية .

وكذلك صدر قرار منع شرب الكحول في أمريكا عام ١٩١٩ والذي سمي بقرار الجفاف ؛ لأن الخمر عندهم هي سبيل إطفاء الظمأ ، واستمر هذا القرار حتى عام ١٩٣٣ ، وسقط بعد أن استفحلت الخمرة أكثر .

وهكذا أخفقت كل المحاولات الجادّة في هذه الدول لمنع شرب

الخمر ، وازدادت نسبة المدمنين على الخمور ، وتفشى في صفوف الشباب . . وقد حاول الكثيرون من اختصاصيِّ علم النفس في تلك البلاد ، البحث عن سبب إقبال الناس على شرب الخمور مع معرفتهم بضررها والآثار الناجمة عنها ، فلم يفلحوا لإيجاد الجواب .

ولكن الجواب ورد في الشريعة الإسلامية . . فتلك المجتمعات المتطورة صناعياً ، تعيش حالة من الفراغ الروحي ، فهي لا تدري ما مصيرها ، ولا إلى أين اتجاهها . . فالفرد هناك قد حاز وامتلك كل شيء ، حتى الكماليات ، لا يتعب في سبيل تأمينها . . وبالرغم من كل هذا نجد أن نسبة الجرائم من سرقة وقتل ونهب ، إنما هي أعلى ما تكون في هذه البلاد وعلى رأسها أمريكا بلد الحضارة والمدنية !! . .

وعندما بتَّ القرآنُ الكريم الحكمَ بتحريم الخمر ؛ ذكر أن ذلك لآثارها النفسية والعقلية السيئة : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾

[المائدة : ٩١] .

والمرءُ إذا استرخى زمام فكره ، استيقظتْ غرائزه ، وتلاشى ما يحكمها ، وشرعت تنطلق هنا وهناك دون حذر ، ومن ثم ترى المخمور يأتي أفعاله وكأنه حيوان لا صاحب له .

ويظهر أن بعضهم يفرُّ من الإحساس بالواقع إلى غيبوبة مؤقتة ،

أو نشوة مُتاحة ، يظنها استجماماً لأعصابه ، وهو لو صحَّ ما توهَّم : غيبوبة يعقبها صحو أليم ، فإنَّ المسكرات قد تنقل ذويها إلى عالم من التلبد وقلة المبالاة ، وربما أشعرتهم ببعض السرور الغبي الماجن ، لكن الصحو الذي يعقب هذه الغيبوبة يجيء مضاعف الحسرة ، وذلك إلى جانب ما يسكن البدن الإنساني من علل مختلفة ، وهذا هو السرُّ في تعبير القرآن الكريم عن الخمر والميسر ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة : ٢١٩] . أي : إن النتائج الضارة التي لا فكاك منها أرجح مما يتوهمه السكير ، أو يشعر به من نشوة ولذة ، وكذلك ما يسببه الميسر من شحناء أكبر مما يعود على الفقراء من أرباح القمار .

وقد حدثني أحد الأخوة أنه عندما نزل مطار إحدى مدن أمريكا استقبله رجل وامرأة من جهاز الأمن الأمريكي . . وأخذوا يحذرونه من السرقات والجرائم ، وأن ينتبه لحاجياته خشية السرقة ، وأن لا يسير في الشوارع وحده أبداً ، و . . وسلسلة من النصائح التي تشعرك أنك في بلاد تطبق شريعة الغاب ، وهذه الحقيقة واضحة في هذه البلاد من خلال وجود الولايات العديدة ، وكل ولاية لها حاكم ، وقوانينها الخاصة . . ولو عدنا إلى نسبة الجرائم لوجدنا أن أعلى نسبة للانتحار إنما هي في بلاد السويد هذا البلد الذي يعادل فيه دخل الفرد السويدي أربعة أو خمسة أضعاف دخل الفرد الأمريكي من الدولارات . . ومع ذلك فالانتحار وارد عندهم . . وبكثرة !! فماذا يدفع أولئك الناس إلى الانتحار ؟!.

تُرى ما الذي يدفع شخصية مثل « داليدا » وهي التي على جانب كبير من الثروة والجمال والشهرة التي طبقت شهرتها الآفاق إلى الانتحار ، وتترك بجانبها ورقة كُتب عليها : « لا تحزنوا علي ، لقد مللت هذه الحياة ؟! » إن لم يكن فراغاً روحياً ، فماذا يكون ؟ .

فهؤلاء ارتكبوا الجرائم وانتحروا ، ولكن الآخرين من ضعاف النفوس لجؤوا لحل آخر ، وهو أن يحافظوا على أجسامهم في هذه الحياة الدنيا ويسبحوا بخيالهم إلى الآفاق ، وإلى بلاد أخرى ، فلجؤوا إلى الشرب ، والإفراط فيه ، على الرغم من معرفتهم الأكيدة بضرره والأمراض التي تنجم عنه . . ولا يوجد فرد في تلك البلاد إلا ويعرف الميزانية الضخمة التي تجعلها الدولة سنوياً من أجل علاج المرضى الذين يصابون بأمراض عديدة ناجمة عن تناول الكحول . . ولنقرأ تقريراً لمنظمة الصحة العالمية ، الذي أعدته بشكل دراسة حول مشكلة الإدمان على الكحول . . فيقول التقرير :

« إن منظمة الصحة العالمية لم تستطع العثور على إجابة مقنعة حول الدوافع التي تهيب بالناس إلى الإفراط في تناول المشروبات الكحولية ، مع كل ما يعرفونه من مضارها في عصر انتشار الثقافة الصحية انتشاراً واسعاً ؛ عن طريق وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية ، كما أن منظمة الصحة العالمية تجد نفسها في حيرة حيال الوسائل الفعالة الناجعة لمساعدة المدمنين ، وتخليصهم من هذه الآفة . وباحثو منظمة الصحة يدركون صعوبة التغلب على

الإدمان ، ولا يعللون النفس بالأوهام في شأن الحد من أخطاره بالسرعة المطلوبة ، غير أنهم يأملون أن يجدوا الوسيلة عبر تبادل المعلومات وعقد المؤتمرات لمساعدة الحكومات المعنية للحد من تفشي الإدمان على الخمور في بلدانها ، واتخاذ الإجراءات الآيلة إلى مكافحة أسوأ آثار الإدمان ووقف تفشيه ، سواء عن طريق التوعية الشعبية ، أو بوسائل الإعلام ، أو بوسائل أخرى كفرض الرسوم المالية على المشروبات الكحولية ، ومكافحة تعاطيها من عمر معين » .

وتتابع الدراسة قائلة : « إن الاتجاه العالمي يشير إلى المزيد من إدمان الكحول ، ومزيد من حوادث القيادة أثناء السكر ، ومزيد من المشاحنات والتوتر في العائلات التي يكثر بعض أفرادها ـ ولا سيما الأبوان ـ من استهلاك المشروبات الروحية ، وأشار التقرير أيضاً إلى تلك الأموال الطائلة التي تنفق للعناية بمدمني الكحول ، وتوفير الرعاية الصحية لهم بإنشاء مراكز ضخمة فقط لمدمني الكحول » . . ولا يسع المنظمة بعد هذه الإحصاءات والدراسات إلا أن تعرف بأن الإسلام هو وحده الذي استطاع أن يحل مشكلة الإدمان على الكحول بفترة قياسية . . فيقول التقرير المقدم للجمعية في جنيف بسويسرا :

« إن درجة عالية من النجاح في الامتناع عن شرب الخمر دامت طوال ١٤ قرناً في البلدان التي تدين بالإسلام ، وإن السياسة الوحيدة الناجحة التي استطاعت منظمة الصحة العالمية العثور عليها في مجال

مكافحة الإدمان كانت تتمثل في الإسلام ؛ الذي يحظر شرب الخمر رسمياً ، وبصورة باتة قاطعة !! » . .

هذا هو رأي هؤلاء من الباحثين ، ولكنهم بالتأكيد لم يعلموا كيف استطاع الإسلام أن يمنع شرب الخمر بصورة باتة قاطعة . . فلو تساءلنا كيف استطاع الإسلام حل هذه المشكلة ؟ كيف استطاع القرآن الكريم أن يجعل الناس ينفرون لمجرد ذكر الخمر ؟! . .

إنما استطاع ذلك عن طريق أسلوبه الرائع جداً ، والذي استقي منه في العصر الحديث منهج للعلاج النفسي . . وضحه الدكتور صبحي الصالح رحمه الله ، فقد بدأ أولاً بإظهار الخمر كواقع موجود، وتحدث عن الخمر من ناحية الفائدة والضرر. ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة : ٢١٩] .

فهنا وجه أنظار السكارى إلى أن الحرمة إنما تقوم على غلبة الشر فمهما يكن فيها من منافع اقتصادية في المتاجرة بها . ومن منافع ظاهرية في حمرة الخد التي توهم بالصحة الجيدة الحسنة ، ومن منافع اجتماعية فيما تدفع إليه من السخاء والجود في حالة السكر والعربدة . . أو من الشجاعة التي تبلغ أحياناً حد التهور في ساحة الحرب ، مع كل هذا فإن إثمها أكبر من نفعها ، وتلك علة كافية لتحريمها . . فكانت الخطوة الأولى تحريكاً للمنطق التشريعي في

نفوس المسلمين . . ثم تبعتها الخطوة الثانية بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء : ٤٣] .

فضيّق عليهم الفرصة لمزاولة السكر ، لأن الصلوات الخمس قد شرعت في أوقات متقاربة لا يكفي ما بينها للإفاقة من نشوة الخمر ، حتى إذا أصبحت فرص السكر نادرة بطبيعة الحال حرّم الله عليهم الخمر بلهجة قاطعة جازمة فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : ٩٠ ـ ٩١] .

هنا قالوا انتهينا . . وانتهوا حقيقة . . وأصبحوا ينظرون إلى حدود الله في شرب الخمر ، ويخجلون أن يصل الأمر بأحد المسلمين إلى أن تقام عليه هذه الحدود(١) .

ومن الآيات السابقة نلاحظ أن القرآن الكريم قد جمع بين الخمر والميسر ، في إظهار الضرر والنفع في البداية ، ثم في التحريم . . لماذا ؟ لأن القمار ـ الميسر ـ إذا تفشى في المجتمع فهو لا يقل خطورة عن الخمر في تشتيته لأموال الناس ، وإهدارها بغير الحق . والقمار يساهم في توليد الأحقاد والضغائن في النفوس ، وإهدار الوقت على طاولات ، وفي صالات القمار ، كل هذا يؤدي لانحلال

(١) مباحث في علوم القرآن ـ د . صبحي الصالح ـ صفحة ٥٩ ـ ٦٠ .

اجتماعي كبير وتحطيم لمثل المجتمع الذي يسير ليواكب الحضارة . . ويكفينا في القمار قول الشاعر :

هو الداء الذي لا برء منه وليس لذنب صاحبه اغتفار
تشاد له المنازل شاهقات وفي تشييد ساحاتهن الدمار

فأين من يقول إن الإسلام دين سطحي ، ومجمّد للإنسانية ، وعثرة في وجه الحضارة والمدنية . . أليست الدعوة إلى ترك الخمر والميسر هي من أشد الحرص على استمرار الفعالية الإنسانية . . وإبعادها عن الحياة المرتبكة ، المليئة بالحوادث والجرائم ، كالمجتمعات الغربية والشرقية التي تعيش في ظل كوابيس الحياة البعيدة عن الإنسانية . . ولكن . ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

والإسلام يُحرِّم المسكرات ، ويعاقب شاربيها بالجلد ثمانين ، وهو حدٌّ اتفقت الأمة عليه ؛ لأن الروايات اختلفت في عقوبة تناول الخمر ، فمنها ما جاء بضربه وإهانته ، ومنها ما جاء بجلده أربعين ، ومنها ما بلغ بالجلد ثمانين .

وقد رأى الصحابةُ أن من سكر هَذَى ، ومن هَذَى افترى ، فليعاقب بحدِّ الافتراء ، أي : قذف المحصنات .

ونلفت النظر إلى أن الإسلام يعاقب على شرب الخمر لا على السكر منها ، فمن شرب ـ سكر أو لم يسكر ـ ضُرِب الحدَّ المقرر .

وأرى أن هناك بيئات قد استباحت المسكر والمخدّر ، وأن إنزال عقوبة الموت بها أجدى على الدين والدنيا .

٣ ـ مشكلة العبيد والاسترقاق

ويأتي اليوم من يدّعي العلم والمعرفة ، ليتبجح ويقول : إن الإسلام دين رجعي ، فهو لم يصدر أي قانون يمنع الرق واستغلال العبيد !! . .

لقد فات هذا المثقف أن الرجعية إنما هي فيه لأمرين :

أولهما : أنه يريد أن ينسف الإسلام اليوم من خلال مشكلة لم تعد موجودة ، فهو كمن يبحث في حديقة من الورود والرياحين عن نبتة شوكية ، ليسب ويلعن هذه الورود .

وثانيهما : أنه لو كان مثقفاً حقاً ومتعلماً ، أو لو اطلّع على التاريخ ، لفكر أكثر من مرة قبل أن يقول هذا الكلام . . لماذا ؟!

لأن مشكلة الرق والعبيد ، وسيطرة القوي على الضعيف هي مشكلة قديمة قدم التاريخ ، وما تلك الادعاءات التي تنسب إباحة الرق للإسلام إلا تخرصات كاذبة صدرت عن ألسنة مغرضة حاقدة . . فلو راجعنا تاريخ البشرية القديم ، لوجدنا أن الرق كان متفشياً ذائعاً في أرجاء الأرض . . فقد كان موجوداً عند الفراعنة والآشوريين والبابليين والصينيين والفرس والهنود والإغريق والرومان . . وطرق الاسترقاق كانت كثيرة متعددة ، فهم يسترقون

عن طريق الأسر والحرب ، وعن طريق الخطف والغصب ، ويسترقون مقابل العجز عن الوفاء بالدين ، فيصبح المستدين أو أحد أفراد أسرته عبداً للمدين إن عجز عن الوفاء بدَينه .. ويسترقون للتكفير عن الجريمة ، وكانوا يسترقون عن طريق الشراء حينما يضطر الفقراء إلى بيع أولادهم بسبب الحاجة .

وفي هذا يحدثنا الأستاذ أندريه كرسون فيقول : « ... ففي العصور القديمة اليونانية ، اللاتينية كان نظام الرق مشروعاً ، وإن أشرق القلوب إذ ذاك كانت تجد من الطبيعي أن يباع الرجال والنساء والأطفال ، وأن يعاملوا معاملة السوائم » .

ويتابع في كتابه (المشكلة الأخلاقية والفلاسفة) فيقول : « وكانت القوانين الرومانية القديمة تجعل من المرأة والأطفال ملكاً للزوج ، كما لو كانوا أمتعة وأنعاماً . لهذا كان للأب من بين الحقوق الأخرى ، الحق في أن يعرض ابنته المولودة حديثاً ، في السوق العام ، إذا كانت له بنت أخرى !! كما كان الرق منتشراً عند العرب قبل الإسلام ، وكانت معاملة العبد سيئة فهو يهان ويسام الخسف ، وهو يقوم بالشاق المرهق من الأعمال ، وكان السادة يذيقون الإماء ألواناً من المذلة والهوان ، حتى وصل الأمر إلى المتاجرة بأعراضهن » .

وكان الرقيق قديماً ـ عند الرومان وغيرهم ـ يعملون في الحقول وهم مصفدون في الأغلال الثقيلة ؛ التي تكفي لمنعهم من الفرار .

ولم يكونوا يُطْعَمُون إلا إبقاءً على وجودهم ليعملوا ، لا لأن من حقهم أن يأخذوا حاجتهم من الغذاء . وكانوا ـ في أثناء العمل ـ يساقُون بالسوط ؛ لغير شيء إلا لِلّذة الفاجرة التي يحسُّها السيد ، أو وكيله ، في تعذيب هذه المخلوقات . ثم كانوا ينامون في زنزانات مظلمة كريهة الرائحة ، تعيث فيها الحشرات والفئران .

وكان السادة يجتمعون لمشاهدة القتال الحقيقي حتى الموت بين العبيد ، حيث تُوجَّه طعنات الرماح وضربات السيوف إلى أي مكان في الجسم بلا تحرز ولا احتياط من القتل ، بل كان المرح يبلغ أقصاه ، وترتفع الحناجر بالهتاف والأكف بالتصفيق ، حين يقضي أحدُ المتبارزين على زميله قضاءً كاملاً ، فيلقيه مُضرَّجاً بدمائه ، فاقد الحياة !

هذه لمحة بسيطة عن وضع الرق قبل الإسلام الحنيف ؛ الذي جاء ليحقق الحرية في كل مجال ، في الاعتقاد وفي الرأي ، وفي الحس ، وفي النفس ، وليعيد الناس كما أنشأهم ربهم أعزةً كراماً ، بلا استعباد ولا استبداد ، وقد ترجمت عن هذه المعنى كلمة عمر الخالدة التي استنكرت الذلة والهوان : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً »(١) .

فالناس سواسية ، لا فرق بينهم ، إلا إذا تقدم أحدهم على الآخر بالعبادات والتقوى لله عز وجل ، دون مراعاة لحسب أو نسب .

---

(١) يسألونك في الدين والحياة ـ د . أحمد الشرباصي ٤/ ٣٧١ .

والكثيرون يعرفون قصة المصري الذي سابق ابن عمرو بن العاص والي مصر ، فتسابقا وسبقه المصري ، فلما وصل إليه لطمه وقال له : أتسبقني وأنا ابن الأكرمين .. هنا حمل المصري مظلمته إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ الفاروق ـ وشرح له ما حصل معه .. فأراد عمر رضي الله عنه أن يجسد معنى الكرامة والحرية في الإسلام ، فبعث إلى عمرو بن العاص وطلب منه الحضور مع ابنه .. ولما وصل والي مصر مع ابنه ، وجد أمير المؤمنين غاضباً ، فنادى على المصري وأعطاه دُرَّته ثم قال للمصري : اضرب ابن الأكرمين هذا !! .. ثم قال : واضرب والده ، فوالله ما أقدم على ضربك إلا لمكان والده ! فامتنع المصري وقال : لا أضرب إلا من ضربني .. وهنا أطلق الفاروق عمر كلمته الشهيرة : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ؟!

الله أكبر .. هذا هو العدل حقاً .. الذي لا يحسب حساباً لجاه أو سلطان .. هذا هو ما أتى به الإسلام .. فأشرق بصباحه الذي ملأ العالم نوراً وضياءً بعد طول الليل البهيم ، فوجد الرق أمامه شائعاً ذائعاً ، مسيطراً متحكماً ، لا يمكن القضاء عليه دفعة واحدة ، بين يوم وليلة ، فلجأ إلى مجموعة من الخطط التكتيكية ليصل إلى هدف استراتيجي ذات يوم ، وهذا الهدف هو إلغاء الرق وعصر العبودية .. ومن قبل المسلمون أنفسهم .. ولذلك نظر إلى الاسترقاق نظرة الكراهية والبغضاء ، وألغى الإسلام كل أسباب الرق التي كانت فاشية ، وقصر جواز الاسترقاق على حالة واحدة ، هي

حالة الأسر في حالات الحرب المشروعة التي يبيحها الإسلام بأسبابها وشروطها وقواعدها وآدابها ، والحكمة من هذا هي المعاملة بالمثل ، وإظهار القدرة للأعداء . . وكان الأسرى يوكل أمرهم إلى ولي الأمر الشرعي ، فإن رأى المصلحة في الفداء طولبوا بافتداء أنفسهم . ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [محمد : ٤] .

وعلينا هنا أن نتذكر كم من عمليات العفو مرَّت في تاريخنا ، فضربت المثل الأعلى في السماحة وحسن المعاملة . . لأن الإسلام كان حريصاً على معاملة الرقيق بالحسنى ، والإحسان إليهم ، وبسط يد الحنان لهم ، ولم يجعلهم موضع إهانة ولا ازدراء . . فقال ﷺ : « **اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم** »(١) .

ونهى الرسول الكريم ﷺ عن شتم الغلام ومناداته بما يدل على تحقيره واستعباده : « **لا يقل أحدكم عبدي أو أمتي وليقل فتاي وفتاتي ، وغلامي** »(٢) .

وأمر أن يأكل الغلام ويلبس مما يأكل المالك ويلبس : « **خَوَلُكُم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوة تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم** »(٣) .

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٢٩٠) وأبو داود (٥١٥٦) وابن ماجه (٥٦٩٨) .

(٢) رواه البخاري (٢٥٥٢) ومسلم (٢٢٤٩) .

(٣) رواه الترمذي (١٩٤٥) .

وهذا تلخيص رائع لطريقة التعامل مع الخدم ـ خولكم ـ فجعلهم أخوة للمالك ، وفي هذا منتهى الرحمة ، وحسن المسؤولية . . وطلب إعانتهم في أمور الخدمة ، وإكرامهم في المأكل والملبس .

فبالله عليكم أين هي تلك العبودية التي يهاجم بها أعداء الله شريعة الله ؟! وحرص الرسول ﷺ على أخذ حقوقهم . . ونهى عن ظلمهم وأذاهم : « **من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه** »(١) .

وهذا أحد الأساليب التي قلنا عنها أنها خطط تكتيكية للوصول إلى هدف استراتيجي هو إلغاء نظام الرق .

هذا كله عن معاملة الرقيق لو صح أن نسميهم رقيقاً ، فهم قد أصبحوا إخوة للمالك ، ولهم من الحقوق عليه مثل ما للأبناء على أبيهم ، فهل هؤلاء أرقاء ؟! .

ولكن مع ذلك ، فقد رغّب الإسلام كثيراً في تحريرهم وإعتاق رقابهم . . وفتح الأبواب الواسعة لذلك وما أكثرها . . فإعتاق العبد طريق إلى رحمة الله وجنته . ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد : ١١ ـ ١٣](٢) .

وجاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، دلني على عمل يدخلني الجنة فقال : « **عتق النَّسَمَة ، وفك الرقبة** » . . فقال

---

(١) رواه مسلم (١٦٥٧) وأبو داود (٥١٦٨) .

(٢) « فلا اقتحم العقبة » : فهلا جاهد نفسه في أعمال البر . « فك رقبة » : تخليصها من الرق والعبودية .

الأعرابي : يا رسول الله أوليسا واحداً؟ قال ﷺ : « **لا ، عتق النَّسمة أن تنفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها** »[١] .

وربّ الكعبة . . ما مرَّ في التاريخ أعدل وأحكم من رسول الله ﷺ ، فهو لم يطالبه بالعتق فقط ، ولكن أيضاً طالبه ببذل المال . . وجعل الإسلام عتق الرقبة كفارة للقتل الخطأ . ﴿ **وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ** ﴾ [النساء : ٩٢] .

ومن حلف يميناً فحنث فيه وجب عليه أحد ثلاثة حلول واحد منها تحرير رقبة . ﴿ **فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ** ﴾ [المائدة : ٨٩] .

ومن حلف على زوجته ثم أراد أن يعود إليها وهذا يسمى ـ الظهار ـ وجب عليه تحرير رقبة . ﴿ **وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا** ﴾ [المجادلة : ٣][٢] .

وحض الإسلام على مكاتبة العبد على قدر من المال . . أي يتفق معه ـ السيد مع عبده ـ على أن يحرره مقابل قدر معين من المال متى توفر معه أعتقه . ﴿ **وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ** ﴾ [النور : ٣٣][٣] .

---

(١) رواه الدارقطني (٢/ ١٣٥) والبيهقي (١/ ٢٧٣) .

(٢) « يظاهرون من نسائهم » : يحرمون نساءهم تحريم أمهاتهم . « يتماسا » : يستمتعا بالوقاع ، أو دواعيه .

(٣) « يبتغون الكتاب » : يطلبون عقدَ المكاتبة .

وجعل من النذر لزاماً على المسلم ، فمن نذر أن يحرر رقبة وجب عليه الوفاء ، لأن النذر دين في عتق المسلم .

والآن . . أفلا يتبيّن من كل هذا كم ضيّق الإسلام مصادر الرق ، وعامل الأرقاء معاملة كريمة ، وفتح أبواب التحرير تمهيداً لخلاصهم نهائياً من نير الذل والاستعباد ، فأسدى ذلك لهم يداً لا تنسى على مر الأيام[١] .

لقد أصبح الرقيق كائناً إنسانياً ، له كرامة يحميها القانون ، ولا يجوز الاعتداء عليها بالقول ولا بالفعل . فأما القول فقد نهى ﷺ السادة عن تذكير أرقائهم بأنهم أرقاء ، وأمرهم أن يخاطبوهم بمودّة الأهل ، وينفي عنهم صفة العبودية . وأما الفعل فقد نهى الإسلام عن قتل العبد ، ومَنْ قتله فعقوبته الصريحة هي المعاملة بالمثل ، وهو مبدأ صريح الدلالة على المساواة الإنسانية الكاملة بين الرقيق والسادة ، وصريح في بيان الضمانات التي يحيط بها حياة هذه الطائفة من البشر ، وهي ضمانات كاملة ووافية ، تبلغ حداً عجيباً ، لم يصل إليه قطُّ تشريع آخر من تشريعات الرقيق في التاريخ كله .

ولو تساءلنا : لماذا يعمد الإسلام إلى كل هذا ؟ .

إن الجواب لا شك واضح وضوح الشمس ، لا يحتاج لبرهان ، فالإسلام دين نادى بالعدل ، وطبقه مباشرة ، فساوى بين جميع

---

(١) فقه السنة ـ السيد سابق ـ ٢/ ٦٩١ .

الناس ونفّر من التفرقة العنصرية ، وتمييز البشر عن بعضهم بعض بحسب جنسهم ولونهم ومركزهم الاجتماعي ، فقرر الإسلام وحده الأصل الإنساني في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النساء : ١] .

وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات : ١٣] .

فلم يقل أغناكم ، أو أبيضكم .

والرسالة التي جاء بها الرسول الكريم ﷺ هي رسالة عامة لجميع البشر دون استثناء . ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

وجعل الإسلام العمل هو الأساس في التقدير والجزاء ، وليس المنصب والمركز والجنس واللون ، لأنه ليس للإنسان إلا ما يقدمه من خير أو من شر لنفسه ومجتمعه وآخرته ، وعلى أساسه يكون الحساب . ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم : ٣٩] .

ومقياس الإسلام في تفضيل الناس على بعضهم بعض هو ميزان التقوى والعمل الصالح فقال ﷺ : « **لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى** »[(١)] .

---

(١) يسألونك في الدين والحياة ـ د . أحمد الشرباصي ٤/ ١٤٧ .
والحديث رواه أحمد (٥/ ٤١١) وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٨٤) .

ouleikandri.com

ويرفع الإسلام من سوية العبيد ، ويحطم العصبية الجاهلية الرعناء ، فيرفع العبيد الأرقاء إلى مصاف السادة الأحرار ، فيذهب بلالٌ الحبشي ليرقى ظهر الكعبة ويؤذن يوم الفتح ، فيقول المشركون مستنكرين : « أهذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة ؟! » . . وهنا تنزل الآية الكريمة التي أشرنا إليها ، والتي وضعت الموازين القسط للأشخاص والقيم والأشياء . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وهذه الآية فعلاً وضعت الموازين القسط(١) .

ولنذكر هنا حادثة تاريخية تظهر المرحلة الرفيعة التي وصل إليها الإسلام في المساواة بين الأبيض والأسود ، فعندما بعث عمرو بن العاص وفداً لمفاوضة المقوقس عظيم القبط ، أثناء فتح الإسلام لمصر ، جعل على رأس الوفد عبادة بن الصامت ، وكان أسود اللون ، وهو الصحابي الجليل الذي شهد المشاهد ، وأحد الخمسة الذين جمعوا القرآن الكريم على عهد رسول الله ﷺ ، وهو معلم أهل حمص في عهد عمر ، وكان أول من تولّى قضاء فلسطين ، وأحد الذين بايعوا الرسول على أن لا تأخذهم في الحق لومة لائم .

وتقدم عبادة في طليعة الوفد ليتكلم باسمه ، فلما رآه المقوقس قال : نحّوا عني هذا العبد الأسود وقدّموا غيره مكانه ليكلمني . .

---

(١) مباحث في علوم القرآن ـ د . صبحي الصالح ـ صفحة ٦١ .

obeikandi.com

فأجابوا : إنه أفضلنا رأياً وعلماً ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدَّم علينا . وإنما نرجع جميعاً إلى رأيه وقوله .. فقال المقوقس متعجباً : وكيف يفضلكم وهو أسود ؟! فقالوا : إننا لا ننكر سواد الرجل بيننا ، وإنما نتفاضل فيما بيننا بالتقوى . وهنا أذعن المقوقس ، واستمع إليه وتفاوض معه .

وأخيراً .. لا بد من أن يلتفت المسلمون إلى واجبهم في هذا الموقف ، لينتهزوا الفرصة الذهبية للدعوة إلى دين الله والتبشير بالإسلام ، يبشرون به بين الطغاة المضطهدين للسود ، ليفضحوا كذبهم وخداعهم ، ولكي يواجهوهم بإمارات وقاحتهم وتبجحهم حينما يدّعون أنهم دعاة للحرية وأنهم حراس العدالة الإنسانية ، وأنهم أصحاب تلك الأكذوبة العالمية الكبرى التي يسمونها : وثيقة حقوق الإنسان ، وإنما هي حبر على ورق .

ولو أننا احتكمنا إلى روح الإسلام ومبادئه لما وجدنا اليوم في عالمنا الحاضر من يصلح أن يطلق عليه وصف الرق ، حتى يجوز استرقاقه بالصورة البشعة الموجودة الآن في دنيا الحرية والمساواة والإخاء !! حيث المدارس نوعان للبيض والسود ، والمطاعم نوعين ، وقد كتب على مطاعم البيض لافتة : ممنوع دخول الكلاب والسود !!.

هذا في وسط أمريكا ، صاحبة تمثال الحرية .. حتى الكنائس نوعان للبيض والسود .

وقصة الملوَّنين في إفريقية ، وحرمانهم من حقوقهم البشرية ، وقتلهم ، أو « اصطيادهم » حسب تعبير الجرائد الإنكليزية ؛ لأنهم تجرؤوا فأحسّوا بكرامتهم ، وطالبوا بحريتهم .

هذا هو العدل البريطاني في قمته !!

إن كان هذا هو ما يسمونه حقوق الإنسان ، فالحمد لله الذي عافانا ، ونحن لا نريد إلا إسلامنا الذي يجعل بلالاً يعتلي سطح الكعبة ، ويجعل عبادة بن الصامت سيد قومه .. ويجعل الإنسان إنساناً حقاً .

* * *

obeikandl.com